تنزيل الآيات على الواقع عند ابن عاشور في تفسير (الناحية الاجتماعية والاقتصادية نموذجًا)

خلود الكيلاني[1]، عبدالله الزيوت[2]

ملخص

تتناول هذه الدراسة تنزيل الآيات على الواقع من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية عند ابن عاشور من خلال تفسيره، وقد هدفت إلى بيان مفهوم تنزيل الآيات على الواقع، وبيان فوائده، وأنواعه، وإبراز تنزيل ابن عاشور للآيات على الواقع من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج من أبرزها عناية ابن عاشور بالواقع المعاصر، واهتمامه بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي عاصرها.

الكلمات الدالة: ابن عاشور، التحرير والتنوير، تنزيل الآيات، الواقع، الاجتماعية، الاقتصادية.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عِوجًا، والصلاة والسلام على نبي الهدى، أرسله ربُّه للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد؛

فقد أيد الله تعالى نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) بالقرآن، وجعله معجزة باقية ومحفوظة بحفظه تعالى إلى قيام الساعة، ولقد عرف العلماء لهذا القرآن قدره، فاعتنوا به أتمّ عنايةٍ، واهتموا به أيَّما اهتمام، ومن ذلك تدبره وتفسيره، فتعدد المفسرون مع مرور الزمان، وتعددت مناهج واختلفت طرقهم في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وتفاوتوا في إبراز معاني القرآن الكريم وربطها بالأحداث المعاصرة للزمان الذي عاش فيه هذا المفسِّر أو ذاك.

وكان من بين هؤلاء الطاهر ابن عاشور (1879م –1973م) المعروف بعلمه، وتعدد مؤلفاته، التي من أبرزها تفسير القرآن الكريم الموسوم بـ(التّحرير والتّنوير) (ينظر في ترجمته: أبو حسان،1991)، ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على جانب من الجوانب المتعلقة بابن عاشور وتفسيره.

مشكلة الدراسة:

معلوم بداهة أن القرآن الكريم معجزة باقية إلى قيام الساعة، لا يمله العلماء، ولا يَخْلق على كثرة الرد، ولا شك أن بتغير الأزمان وتجدد العصور تستجد مسائل، وتقع أحداث تختلف من عصر إلى عصر، ومن مِصْر إلى مِصْرٍ، والأصل في المفسِّر لكتاب الله تعالى أن يستنطق آيات القرآن الكريم ويربطها بواقع الناس وحياتهم، ومن هنا تأتي هذه الدراسة محاولة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: ما مدى عناية ابن عاشور بواقعه المعاصر عند تفسيره لآيات القرآن الكريم؟ ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الآتية:

1. ما المراد بتنزيل الآيات على الواقع؟ وما أهميتها، وما أنواعها؟
2. ما أهم الأحوال الاجتماعية التي سادت في عصره، وما علاقته بها؟
3. ما أهم الأحوال الاقتصادية التي سادت في عصره، وما وعلاقته بها؟

أهداف الدراسة: تسعى هذه الدراسة لتحقيق الأهداف الآتية:

1. بيان معنى تنزيل الآيات على الواقع مفردًا ومركبًا، وإبراز أهميتها، وأنواعها.
2. وصف الأحوال الاجتماعية التي سادت في عصر ابن عاشور، وبيان علاقته بهذه الأحوال.
3. وصف الأحوال الاقتصادية التي سادت في عصر ابن عاشور، وبيان علاقته بهذه الأحوال.

---

1 باحثة في العلوم الشرعية؛ 2 الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2019/9/15، وتاريخ قبوله 2020/2/26.

©2021 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

أهمية الدراسة: تبرز أهمية الدراسة من خلال ما يلي:

1. إن الكشف عن موقف ابن عاشور من الأحداث التي عاصرته، وبيان مدى عنايته بواقعه عند تفسيره لآيات القرآن من شانه أن يفيد المهتمين بتدبر القرآن وتفسيره خاصة، وطلبة العلم والمسلمين عامة.

2. لم يحظ هذا الموضوع ـ في حدود ما بحثنا ـ بدراسة علمية متخصصة، ولذلك نرجو أن تقدّم هذه الدراسة إضافة علمية ولو يسيرة، وأن يفتح باب دراسة جديد، وهو المقارنة بين مفسرين في تنزيل الآيات على الواقع، وبيان مناهجهم في ذلك.

الدراسات السابقة:

لم يحظ هذا الموضوع ـ فيما بحثنا ـ بدراسة علمية مستقلة، ولكن وقفنا على دراسات لها صلة بموضوعها، وهي:

1. دراسة الضامر (1426هـ) تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة من خلال المنار ومجالس التذكير والظلال، وذكر في مقدمتها أنه لم يجد أحدًا من المتقدمين والمتأخرين أفرد لتأصيل هذا الموضوع رسالة أو كتابًا مستقلاً، خلا شذرات يسيرة والماحاتٍ سريعة تم التقاطها من بطون الكتب والرسائل. وتناول في القسم الأول منها التعريف بتطبيق الآيات على الوقائع، وعلاقته ببعض مسائل علوم القرآن، ونشأة التنزيل وفوائده، وحُكمه، وأنواعه، ونماذج من تطبيق الآيات على الوقائع عند المفسرين القدامى. وخصص القسم الثاني منها للتطبيق على قضية التطبيق التي تمت دراستها في القسم الأول، وذلك من خلال تفسير المنار لرشيد رضا، ومجالس التذكير لابن باديس، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وقد طُبعت هذه الدراسة (2007م) بكتاب عنوانه: **(تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين)**.

2. دراسة الزّمزمي (العدد الثاني، مجلة البحوث والدراسات القرآنية)، والموسومة بـ (تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم)، قسمها إلى قسمين؛ الأول منهما تناول فيه مقدمات تمهيدية، وتعريفًا موجزًا بالإمام ابن القيم وعصره، وعناية المفسرين بتنزيل الآيات على الواقع، وتأصيل مسألة (تنزيل الآيات على الواقع) عند الإمام ابن القيم، ثم الملامح العامة لمنهج الإمام ابن القيم في تنزيل الآيات على الواقع. وأما القسم الثاني فخصصه للدراسة التطبيقية، وضمنها أبرز القضايا في عصر ابن القيم، وتنزيله الآيات عليها. ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات، وأتبعتها بذكر قائمة المصادر والمراجع، وفهرس الآيات التي عُني بها ابن القيم، وفهرس الموضوعات.

3. دراسة رحومه (2018) تنزيل الآيات على الواقع من خلال تفسير الفيض في معاني القرآن الكريم ـ محمد الحواس بو سنَّة، ذكرت في المبحث الأول أوضاع الجزائر في عصر الحواس، وفي المبحث الثاني عرفت بالمصنِف والمُصَنَّف، وفي المبحث الثالث تناولت البعد الواقعي للآيات عند الشيخ الحواسي، فتحدثت عن الجانب السياسي، والجانب الإصلاحي الاجتماعي، وجانب التعليم والدعوة، وجانب السلوك والتزكية، وختمت بالجانب الاقتصادي.

وتتميز هذه الدراسة عن سابقاتها بأنها تختص بدراسة تنزيل الآيات على الواقع في الجانبين الاجتماعي والاقتصادي عند المفسِّر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير.

منهج الدراسة: اقتضت هذه الدراسة اتباع المناهج الآتية:

1. المنهج الاستقرائي، وذلك لاستقراء تفسير التحرير والتنوير، والوقوف على الجوانب التي نزَّل فيها ابن عاشور الآيات على الواقع في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية.

2. المنهج التحليلي، وذلك لتحليل نصوص التفسير إلي نزّل ابن عاشور الواقع عليها، وربطها بالأحوال الموجودة في عصره، واستنتاج أسباب التنزيل في بعض الأمور دون غيرها.

3.المنهج الوصفي، وذلك لوصف النواحي الاجتماعية والاقتصادية التي عاشها ابن عاشور، وعرض نماذج من تنزيله للآيات من خلال تفسيره.

خطة البحث: اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تقسم على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها مشكلة الدراسة، وأهميتها، وأهدافها، والمنهج المتبع فيها.

المبحث الأوّل: تنزيل الآيات على الواقع، مفهومه، وفوائده، وأنواعه

المطلب الأول: مفهوم التّنزيل على الواقع مفردًا ومركبًا

المطلب الثاني فوائد تنزيل الآيات على الواقع وأنواعه.

المبحث الثّاني: تنزيل الآيات على الواقع من الناحية الاجتماعية

المطلب الأول: الحالة الاجتماعيّة زمن ابن عاشور

المطلب الثاني: نماذج من تنزيل الآيات على الواقع من النّاحية الاجتماعيّة.
المبحث الثالث: تنزيل الآيات على الواقع من النّاحية الاقتصاديّة.
المطلب الأول: الحالة الاقتصاديّة في زمن ابن عاشور.
المطلب الثّاني: نماذج من تنزيل ابن عاشور على الواقع من النّاحية الاقتصاديّة.
الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

المبحث الأوّل: تنزيل الآيات على الواقع، مفهومه، وفوائده، وأنواعه

المطلب الأول: مفهوم التّنزيل على الواقع مفردًا ومركبًا.

أوّلاً: التّنزيل لغةً واصطلاحًا

(تنزيل): مصدر رباعيّ من الفعل نَزَّلَ، وفعله الثلاثي (نَزَلَ)، وهو يدل في أصل الوضع على الهبوط والوقوع، يُقال: نزل عن دابّته، ونزّل المطر من السّماء. والنزول: الحلول، قال تعالى: **﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾** [الصافات: 177] ؛ أي: حلّ. ويُطلق التّنزيل ويراد به الترتيب؛ أي: ترتيب الشّيء ووضعُه منْزِلَه. (ابن فارس، 1979، ج4، ص416، السمين الحلبي، 1996، ج4، ص163) هو في وصف القرآن يختصّ بالموضع الذي يشير إلى إنزاله متفرّقًا منجّمًا، ومرّة بعد أخرى. (الأصفهاني، 1992، ص 799، الزبيدي، ج30، ص479)

ويظهر مما سبق أن مادة التنزيل تدل في الأصل على هبوط شيءٍ ووقوعه من أعلى إلى أسفل، ويتفرع عن هذا الأصل معانٍ أخرى، وذلك بحسب السياق الوارد فيه.

التّنزيل اصطلاحًا:

لم نجد – في حدود ما بحثنا – من عرّف التّنزيل في الاصطلاح إلا فيما يرتبط بنزول القرآن الكريم ومن ذلك مثلًا: التّنزيل: "ظهور القرآن بحسب الاحتياج بواسطة جبريل على قلب النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، ويستعمل في التّدريج." (الجرجاني، 1983، ص68)

بناء على ما سبق يمكن القول إن التنزيل هو إحلال شيءٍ أو إيقاع فِعْلٍ شيئًا فشيئًا ومرة بعد أخرى.

ثانيًا: الآية لغة واصطلاحًا

الآيات لغة جمع آية، ولها في اللغة عدة معانٍ، منها: الْعَلَامَةُ، ومنه قوله تعالى: **﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** [البقرة: 248]؛ أي: علامة ملكه، وبمعنى العِبْرَة، ومنه قوله تعالى: **﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [النحل: 11] ؛ أي: عبرةً لمن يعتبر، وبمعنى الجماعة، ومنه قولهم: "خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم. والمعنى أنّهم لم يدعوا وراءهم شيئًا، ومنه آية القرآن، لأنّها جماعة حروف، وبمعنى الأمر العجيب، ومنه قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾** [المؤمنون: 50]، وبمعنى المعجزة، ومنه قوله تعالى: **﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾**[البقرة: 211] ؛ أي: معجزة واضحة، وبمعنى البرهان والدّليل، نحو قوله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾** [الروم: 22]. (ابن فارس، 1979، ج1، ص 168–169، ابن منظور، 1414هـ، ج14، ص62) إلى غير ذلك من المعاني، لكن الذي يتصل بموضوع هذه الدراسة هو الآية القرآنية.

وأما الآية اصطلاحًا: فهي" طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن."(الزرقاني، 1995، ج1، ص274)

والمناسبة بين هذا المعنى اللُّغويّ والمعنى الاصطلاحيّ واضحة؛ لأنّ الآية القرآنيّة معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثمّ هي علامةٌ على صدق من جاء بها . صلّى الله عليه وسلّم . وفيها عبرةٌ وذكرى لمن أراد أن يتذكّر، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السموّ والإعجاز، وفيها معنى الجماعة لأنّها مؤلّفة من جملة كلمات وحروف، وفيها معنى البرهان والدّليل على ما تضمّنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته وعلى صدق رسوله في رسالته.

ثالثًا: الواقع لغة واصطلاحًا

الواقع لغةً: اسم فاعل مأخوذ من الفعل الثّلاثيّ وَقَعَ، وهو يدلّ في أصل استعماله على السّقوط، وهو يصدق على كلّ أمر ثبت وقوعه وتحقّق حصوله؛ قال ابن فارس:" (الواو والقاف والعين) أصلٌ واحدٌ يرجع إليه فروعه، يدلّ على سقوط شيءٍ. يقال: وقع الشّيء وقوعًا فهو واقع... ومَواقِعُ الغيثِ: مَسَاقِطُهُ... ووقَع الغَيثُ: سَقَط متفرّقًا."(ابن فارس، 1979، ج6، ص133–134) والوقوع الثبوت والاستقرار،، السمين الحلبي، 1996، ج4، ص332) ووقوع القول: حصول متضمّنه. الراغب الأصفهاني،1992، ص880)

"والوقوع حقيقته سقوط الشّيء من أعلى إلى الأرض، ومنه: وقع الطّائر، إذا نزل إلى الأرض، واستعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر؛ لأنّ ظهوره كان بتأييد إلهيّ فشُبّه بشيء نزل من علوّ، وقد يطلق الوقوع على الحصول؛ لأنّ الشّيء الحاصل يشبه النّازل على الأرض، وهي استعارة شائعة قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: 6]؛ أي: حاصل وكائن."(ابن عاشور، 1997، ج9، ص50)

ومعنى الواقع المتصل بموضوع هذه الدراسة ما ثبت واستقرّت عليه الأحداث والأحوال الحاصلة.

هذا عن الواقع لغة أما في الاصطلاح فذُكِر له عدّة تعاريف منها ما هو مطلق، ومنها ما هو مقيّد، والذي يهمّنا هنا التّعريف للواقع من غير تقييد، ومن هذه التعاريف:

والتعريف الذي نقله أحمد بوعود(2000) عن عبدالمجيد النجار والذي يقول: هو "ما تجري عليه حياة النّاس، في مجالاتها المختلفة، من أنماط في المعيشة، وما تستقرّ عليه من عادات وتقاليد وأعراف، وما يستجدّ فيها من نوازلَ وأحداثٍ." (ص42)

وعرَّفه عبد العزيز الضامر(2007) بقوله: "هو عبارة عن السّنن الإلهيّة والأفعال الإنسانيّة الحاصلة في الزّمن المعاصر."(ص29)

وعرّفه أحمد بوعود (2000) فقال: "كلّ ما يكوّن حياة النّاس في جميع المجالات بكلّ مظاهرها وظواهرها وأعراضها وطوارئها." (ص43)

وهذه التعاريف وإن كانت متقاربة إلا أن تعريف عبد المجيد النّجار هو الأقرب لموضوع هذه الدراسة؛ لأنّه يتحدّث عن مجالات الحياة المختلفة وما يستجدّ فيها من أحداث، والواقع الذي تناولته هذه الدراسة يشمل هذه المجالات التي عاشها ابن عاشور ونزَّل الآيات عليها.

رابعًا: تنزيل الآيات على الواقع مركّبًا

وبعد بيان معاني كلٍّ من التنزيل أولاً، والآيات ثانيًا، والواقع ثالثًا نأتي إلى تعريف تنزيل الآيات على الواقع مركّبًا، ومن التعاريف لهذا المركب:

وتعريف الضامر(2007) الذي يقول فيه:" هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسّر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامّةً أو جزئيّةً أو مخالفةً لما عليه الآية."(ص33-34)

وقريب من هذا التعريف تعريف زمزمي (2009) الذي يقول فيه: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة في زمن المفسِّر، وإدخالها فيما يناسبها من الآيات القرآنيّة."(مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد4، ص25) وذكر أن هذه المقابلة يمكن أن تكون بموافقة الواقعة لنصّ الآية كالتّطبيق العمليّ له، أو بمخالفة الواقعة لتوجيه الآية والإعراض عن تطبيق معانيها.

ونقل الضمور (2011) عن العرابي قوله: هو" إخضاع الحوادث القائمة في وقت المفسِّر لنصوص القرآن الكريم أو بحمل الشّبيه على الشّبيه مرتكزًا على قاعدة العبرة بعموم النّص لا بخصوص السّبب."(ص 140)

ولعلّ معنى المقابلة يوحي بالمساواة أو إعطاء المعنى نفسه، وكذلك قد تُوهم كلمة إخضاع معنى ليّ عنق النّصّ ليوافق الواقع.

وبناء على ما سبق يمكن تعريف تنزيل الآيات على الواقع بالقول: هو إحلال المفسِّر معاني الآيات القرآنيّة والربط بينها وبين الأحداث المكوِّنة لحياة النّاس التي حصلت في زمانه.

وهذا الرّبط يشمل مجالات الحياة المختلفة، ويشمل كذلك كلّ الأنواع التي يكون بها التّنزيل على الواقع: الصّريح والضّمنيّ، الكلّيّ والجزئيّ، المطابق أو المخالف للمعنى المراد بالآية أو الآيات القرآنية، والغاية من هذا الربط بيان ما يُشابه هذه الوقائع أو يُخالفها باعتبار أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ بمعنى أن الحادثة التي نزل بشأنها النّصّ القرآنيّ فإنّه غير مقصور عليها، بل إنّ النصّ يعمّ كلّ واقعة شابهت الحدث الذي نزلت من أجله الآيات إلا إذا قامت القرينة التي تدلّ على أنّ الحكم مقصورٌ على سببه. (الضامر، (2007م)، ص47، عباس، 2010، ج1، ص367).

ولعلّ ممّا تحسن الإشارة إليه هنا أنّ بعض العلماء استعملوا كلمة تنزيل في تفسيرهم كابن القيم (1991)، إذْ قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:51]: "فأمر تعالى الرّسل بما أمر به أممهم: أن يأكلوا من الطّيبات، وأن يعملوا صالحًا، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وألاّ يتفرّقوا في الدّين؛ فمضت الرّسل وأتباعهم على ذلك، ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته، حتى نشأت خلوف قطعوا أمرهم بينهم زبرًا كلّ حزب ممّا لديهم فرحون، فمن تدّبر هذه الآيات ونزّلها على الواقع تبيّن له حقيقة الحال، وعلم من أيّ الحزبين هو، والله المستعان."(ج2، ص161) فهذه دعوة صريحة إلى تدبر الآية وتنزيلها على الواقع، وقد تكرّر هذا في غيرِ موضع.

وقال في موضع: "والنّاصح لنفسه، العامل على نجاتها، يتدبّر هذه الآيات حقّ تدبّرها، ويتأمّلها حقّ تأمُّلها، وينزّلها على الواقع، فيرى العجب، ولا يظنّها اختصت بقوم كانوا فبانوا، فالحديث لك، واسمعي يا جارة."(1996، ج2، ص 367)

وأمّا ابن عاشور فلم يستخدم مفهوم (تنزيل الآية على واقع) في تفسيره إلا في موضع واحدٍ وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُم**﴾ [المجادلة: 22]، حيث نقل عن سفيان الثوري قوله:" كانوا يرَون تنزيل هذه الآية على من يصحب سلاطين الجور." (ابن عاشور، 1997، ج28، ص 60) لكنّه استخدم ما يحتمل هذا المعنى في كتابه مقاصد الشريعة (2011)، وذلك في سياق بيان مستلزمات الاجتهاد وضروراته، فقال:" فلا مساواة بين العالم وغيره في كلّ عمل فيه أثر بيّنٌ لتفاوت الإدراك، مثل: التّصدّي لتفهّم الشّريعة، والقدرة على تلقّي ما طريق تلقيه الاستنباط، والمقدرة على تعرُّف الأحكام الشّرعيّة في مختلف النّوازل، وعلى تنزِيلها في الأحوال الصّالحة لها."(ص 168- 169)

فهو يرى أنّ العالم المجتهد يمتلك إدراكًا يختلف فيه عن غيره، يمكنه معرفة الأحكام المستنبطة من أدلّتها التّفصيليّة . كالآيات والأحاديث . في مختلف النّوازل، وتنزيلها على واقع مشابه، وممّا سلف يتبيّن أنّ ابن عاشور تنبّه إلى أهمّيّة تنزيل الأدلّة الشّرعيّة على الواقع، وتبيّن أيضًا أنّ كلّ اجتهاد لابن عاشور ضمّنه تنزيلاً للآيات أو الأحاديث على الواقع الذي عاش فيه، وإن لم يذكر ذلك.

وفذلكة القول أنّ كلمة تنزيل استعملها المفسّرون للدّلالة على تنزيل معاني الآيات على الأحداث التي حصلت في زمان هذا المفسّر أو ذاك؛ لأن آيات القرآن الكريم مُصْلحة لكل زمان ومان، وباقية على مر العصور والأزمان.

المطلب الثّاني: فوائد تنزيل الآيات على الواقع وأنواعه

أولاً: فوائد تنزيل الآيات على الواقع

إنّ تنزيل المفسّر الآيات على الواقع من القضايا التي تهمّ الدّارس للتّفسير، وذلك لا يتحصّل إلاّ بعد النّظر الدّقيق والتّدبر لما رمى إليه المفسّر، ولتنزل الآيات على الواقع فوائد عدة، يمكن إجمالها بالنّقاط الآتية:

1. توثيق أبرز الأحداث التّاريخيّة في عصر المفسّر،(الضامر، 2007، ص79) فالمفسّر يُعتبر جزءًا من مجتمعه يعايش قضاياهم، وتفسيره يعكس مدى تأثّره بالأحداث التي أحاطت به وتفاعله معها سلبًا أو إيجابًا، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عاشور(1997) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**﴾ [العلق: 17] آ، فبعد أن تدرّج بالحديث عن دار النّدوة، وكيف أنّه كان مجلسًا لتشاور أعيان قريش، وكيف أُدخِلَ بعضُه ضمن المسجد الحرام في الزّيادة في خلافة عبد الملك بن مروان وأبي جعفر المنصور، وأنّه كان مسجدًا متّصلًا بالمسجد الحرام حتى هُدم، قال: "وأُدخِلَت مساحته في مساحة المسجد الحرام في الزّيادة التي زادها الملك سعود بن عبد العزيز ملك الحجاز ونجد سنة 1379م." (ج30، ص451)

فهو يوثّق إدخال دار النّدوة لمساحة المسجد الحرام بالزيادة التي حصلت في زمن الملك سعود وكانت في زمانه، علمًا أنّ دار الندوة كانت مسجدًا بالقرب من المسجد الحرام.

2. معرفة مدى تفاعل المفسّر مع الأحداث الحاصلة في زمانه إيجابًا أو سلبًا؛ وذلك للاستفادة من قول المفسّر، أو تعقيبه على تلك الحادثة في حال حصول حادثة مشابهة لها بعد عصر المفسّر،(الضامر، 2007، ص80) ومن ذلك تفسير ابن عاشور(1997) لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون**﴾ [الجمعة: 9]، يقول: "ورأيت فِي الجامع الأُمويّ في دمشق قام إمام يصلّي بجماعة ظهرًا بعد الفراغ من صلاة الجمعة وذلك بدعة."(ج28، ص223) فهو يروي موقفًا دعاه لإنكار إقامة صلاة الظّهر جماعةً بعد إقامة صلاة الجمعة، وبيان أنّها بدعة مستحدثة وهذا من قبيل التّنبيه لعدم تكراره؛ لأنّه يخالف الثّابت من السنّة النّبويّة.

3. تقريب معنى الآية وتسهيل فهمها على القارئ. (الضامر، 2007، ص81) وذلك بأن يعطي وصفًا دقيقًا للّفظة ومن ثَمّ يربطها بواقعه ليقرّب الصّورة ويزيل الإبهام، ومن ذلك ما جاء في تفسير ابن عاشور (1997) لكلمة (المرجان)، فقد وصفه وبيّن أماكن وجوده لتقريب المعنى للأذهان، يقول: "والمرجان: حيوان بحريّ ذو أصابعَ دقيقةٍ ينشأ ليّنًا ثمّ يتحجّر ويتلوّن بلون الحمرة، ويتصلّب كلّما طال مكثه في البحر فيستخرج منه كالعروق تُتّخذُ منه حليةٌ، ويُسمّى بالفارسيّة (بسذ)، وقد تتفاوت البِحار في الجيّد من مرجانها، ويوجد ببحر طبرقة على البحر المتوسّط في شمال البلاد التّونسيّة."(ج27، ص250)

4. تنمية علاقة المسلم بنصوص الوحي المنزَّل، وربطه بكتاب الله ترغيبًا وترهيبًا في جميع أحواله وتقلّباته؛ فما من نازلة تنزل إلا ويجد المسلم في كتاب الله هداية له فيها. (زمزمي، 2009، ص25) ومن ذلك قول ابن عاشور (1997) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: 25]: "فعلى عقلاء الأقوام

وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامَّتهم أن يبادروا للسَّعي إلى بيان ما حلَّ بالنّاس من الضَّلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيَّته وشبهته وعواقِبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسُّلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتَّى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانَوا فيه لم يلبث الفساد أن يسريَ في النُّفوس وينتقلَ بالعدوى من واحد إلى غيره، حتَّى يعمَّ أو يكاد، فيعسُر اقتلاعه من النُّفوس، وذلك الاختلال يُفسد على الصَّالحين صلاحَهم، وينكِّد عيشهم على الرَّغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أنَّ الفتنة إذا حلَّت بقوم لا تصيب الظَّالم خاصَّة بل تعمُّه والصَّالحَ، فمن أجل ذلك وجب اتِّقاؤها على الكلِّ؛ لأنَّ أضرارَ حلولها تصيبُ جميعَهم.

وبهذا تعلم أنّ الفتنة قد تكون عقابًا من الله تعالى في الدُّنيا، فهي تأخذ حكم العقوبات الدُّنيويَّة التي تصيب الأمم، فإنّ من سنَّتها ألاّ تخصَّ المجرمين إذا كان الغالب على النّاس هو الفساد، لأنَّها عقوبات تحصل بحوادث كونيَّة يستتبُّ في نظام العالم الذي سنَّه الله تعالى في خلق هذا العالم أن يوزَّع على الأشخاص." (ج9، ص 316-317)

فهو يدعو إلى ضرورة الإصلاح منذ بداية الفتنة، ويعلّل ذلك بأنّ الفتنة إن ظهرت سرعان ما تنتشر، ويحذِّر من العقوبة التي إن نزلت أصابت الجميع، وفي هذا تنبيهٌ وترهيبٌ، وتقريبٌ لفهم الآية، وبيانٌ لواجب ولاة الأمر والدّعاة من الأُمّة الإسلاميّة، وتوجيهٌ لدورهم في اجتثاث أصول الفتنة ونشر الصّلاح.

5. الوقوف على بعض الجوانب العلميّة من حياة المفسِّر، ومن ذلك استدلال ابن عاشور (1997) ببعض أقوال جدّه حيث قال: "قال الشّيخ ابن عاشور جدّي في تعليقٍ له على حديثِ فضل إخفاء الصّدقة من صحيح مسلم: عطَفَ إيتاء الفقراء على الإخفاء المَجْعُول شرطًا للخيريَّة في الآية . مع العلم أنّ الصّدقة للفقراء يؤذِن بأنّ الخيريّة لإخفاء حال الفقير وعدم إظهار اليد العليا عليه؛ أي: فهو إيماء إلى العلّة وأنّها الإبقاء على ماء وجه الفقير، وهو القول الفصل لانتفاء شائبة الرّياء." (ج3، ص69) يظهر من خلال هذا المثال أنّ جدّ ابن عاشور كان عالمًا، وأنّ ابن عاشور قد تأثّر به، ومما يؤكد هذا قوله عند الحديث عن مناصب قريش: "كانت لهم مناصبُ أخرى، ثمانيةٌ أبطلها الإسلام، رأيتها بخطّ جدّي العلاّمة الوزير..." (ج3، ص 96)

وأيضًا في الوقوف على جوانب من حياته العلميّة عندما يحيل ابن عاشور (1997) إلى بعض كتبه في مواضع متعدّدة في تفسيره بحيث يستطيع القارئ التّعرّف إلى أسماء بعض مؤلّفاته.(ج10، ص173، ج22، ص71، ج24، ص47) أو عند ذكر اسم شيخه. (ج3، ص69) أو حواره مع بعض العلماء. (ج25، ص112، ج28، ص348)

6. إبراز آراء المفسِّر الفقهيّة، واستنباط الأحكام الشّرعيّة، ومن ذلك ما جاء عند تفسير ابن عاشور (1997) لقوله تعالى: **﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾** [النمل: 16] حيث يقول: "إن كان قول سليمان ظاهرًا - وهو يرجّح ذلك - كان حجّةً على أنّه يجوز للعالم أن يذكر مرتبته في العلم لفوائد شرعيّة ترجع إلى أن يحذّر النّاس من الاغترار بمن ليست له أهليّة من أهل الدّعوى الكاذبة والجعجعة الجالبة، وهذا حكم يُستنبط من الآية؛ لأنّ شرع من قبلَنا شرعٌ لنا." (ج19، ص235)

ثانيًا: أنواع تنزيل الآيات على الواقع

ظهر من خلال الدّراسة لتنزيل الآيات على الواقع عند ابن عاشور أنّها كانت على أنواع متعدّدة، وفق اعتبارات متنوّعة.

أوّلاً: باعتبار التّصريح والتّلميح ينقسم التّنزيل على الواقع بهذا الاعتبار إلى نوعين:

1. تنزيل التّصريح:

وهو أن يصرّح المفسِّر أنّ معنى الآية حاصل في زمانه، ومثاله ما ورد في العذاب الواقع بعادٍ، قال تعالى: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾** [فصلت: 16]، فقد فسَّر ابن عاشور(1997) "ريحًا صرصرًا" بقوله: "وإنّما كانت الريح التي أصابت عادًا بهذه القوّة بسبب انضغاط الهواء غير المعتاد؛ فإنّ الانضغاط يُصيّر الشّيء الضّعيف قويًّا، كما شوهد في عصرنا أنّ الأجسام الدّقيقة من أجزاء كيماويّة تسمّى الذّرّة تُصيَّر بالانضغاط قادرةً على نسف مدينة كاملة، وتُسمّى الطّاقة الذّريّة، وقد نُسف بها جزء عظيم من بلاد اليابان في الحرب العامة."(ج24، ص259)، فقد صرّح ابن عاشور بأنّ إلقاء القنبلة الذرّيّة على اليابان كان في عصره، وكان ذلك أثناء الحرب العالميّة الثانيّة، حيث شنَّت الولايات المتحدة الأمريكيّة هجومًا على هيروشيما ونجازاكي في اليابان عام 1945م، وكانت نتيجته استسلام اليابان. (آدمز،2008، ص56-57)

2.التّنزيل الضّمنيّ:

وهو إشارة المفسِّر وتلميحه إلى أنّ معنى الآية حاصل في زمنه دون التّصريح، بل يورده على سبيل التّعريض والتّلميح،

(الضامر، 2007، ص72) ومن ذلك ما جاء عند تفسير ابن عاشور (1997) لقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾** [النور: 62]، حيث قال: "وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمّة؛ لأنّ من السّنّة أن يكون لكلّ اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع، وقد أشارت مشروعيّة الإمامة إلى ذلك النّظام، ومن السّنّة ألاّ يجتمع جماعةٌ إلا أمّروا عليهم أميرًا، فالذي يترأّس الجمع هو قائم مقام وليّ أمر المسلمين، فهو في مقام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه، لأنّه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضًا في التّخلّف عن الاجتماع عند الدّعوة إليه كاجتماع المجالس النّيابيّة والقضائيّة والدّينيّة أو التّخلّف عن ميقات الاجتماع المتّفق عليه إلا لعذرٍ واستئذان." (ج18، ص308)

فهو يشير إلى أدب عظيم وهو الاستئذان وعدم التّخلّف عن الاجتماع دون عذر، ويُفهم من ذكرِه الأمثلةَ كالمجالس النيابيّة والقضائيّة والدّينيّة ما كان حاصلاً في زمنه من تخلّف بعض الأعضاء، لا سيّما أنّه تولّى مناصبَ عليا في القضاءِ، حتّى أصبح كبيرَ أهلِ الشّورى وشيخ الإسلام المالكيّ.(الغالي، 1996، ص62)

ثانيًا: باعتبار الجزئيّة والكليّة، وينقسم التّنزيل بهذا الاعتبار إلى نوعين:

1. التّنزيل الكلّيّ:

وهو أن يقابل المفسِّر الآية بما يطابق معناها في الواقع تمامًا،(الضامر، 2007، ص76) ومن ذلك ما جاء عند تفسيره (1997) لقوله تعالى: **﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾** [العلق: 2]، حيث قال: "ومن إعجاز القرآن العلميّ ذكر العلقة؛ لأنّ الثّابت في العلم الآن أنّ الإنسان يتخلّق من بويضة دقيقةٍ جدًّا لا تُرى إلا بالمرآة المكبّرة أضعافًا، تكون في مبدأ ظهورها كُرويّةَ الشّكل سابحةً في دم حيض المرأة، فلا تقبلُ التّخلّق حتى تخالطَها نطفةُ الرّجل فتمتزج معها فتأخذ في التّخلّق إذا لم يُعِقْها عائق، فإذا أخذت في التّخلّق والنّموّ امتدّ تكوّرها قليلًا فشابهت العلقة التي في الماء مشابهةً تامّةً في دقّة الجسم وتلوّنها بلون الدّم الذي هي سابحة فيه وفي كونها سابحةً في سائل كما تسبح العلقة."(ج30، ص438)

فابن عاشور أخذ معنى الآية وأشار إلى معجزة قرّرها القرآن الكريم قبل أن يقرّرها العلم بمعرفةِ مراحلِ تكوّنِ الجنين التي تشهد على أنّ القرآن كتابٌ من عند الله عزّ وجلّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

2. التّنزيل الجزئيّ:

وهو أن يأتي المفسِّر بآية وينزّلها على واقع يطابق جزءًا من معناها، ومن ذلك قول ابن عاشور (1997) عند قوله تعالى: **﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾** [النساء: 176]: "وقوله:**﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾** تذييل، وهذه إيذانٌ بختم الكلام، ويؤذن بختام التّنزيل، إن صحّ أنّها آخر آية نزلت، كما ذلك في بعض الرّوايات، وإذا صحّ ذلك فلا أرى اصطلاح علماء بلدنا أن يختموا في تقرير دروسهم بقولهم "والله أعلم" إلا تيمّنًا بمحاكاة ختم التّنزيل. (ج6، ص68)

فابن عاشور أخذ جزءًا من الآية وهو ختامها لينزّله على واقع علماء تونس الذين يقولون "الله أعلم" في ختام مجالسهم؛ فيرى أنّ ذلك تيمّنٌ بالقرآن الكريم.

ثالثًا: باعتبار مطابقة المعنى أو مخالفته له وينقسم التّنزيل بهذا الاعتبار إلى قسمين:

1. تنزيل الآية على ما يطابق المعنى.

وهو أن يقوم المفسِّر بالتّنزيل على الواقع بما يطابق معنى الآية، ومن ذلك قول ابن عاشور (1997) عند تفسيره لقوله تعالى**﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [النحل: 8] : "فالذي يظهر لي أنّ هذه الآية من معجزات القرآن الغيبيّة العلميّة، وأنّها إيماء إلى أنّ الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى (بسكلات)، وأرتال السّكك الحديديّة، والسّيارات المسيّرة بمصفّى النّفط وتسمى (أطوموبيل)، ثمّ الطّائرات التي تسير بالنّفط المصفّى في الهواء. فكلّ هذه مخلوقات نشأت في عصورٍ متتابعةٍ لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كلٍّ منها. وإلهام الله النّاس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذّكاء والعلم، وبما تدرّجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأنّ الكلّ من نعمته." (ج14، ص111)

ونزّل ابن عاشور الآية الكريمة على واقعٍ مطابقٍ للمعنى فالمخترعات التي ألهم الله الإنسان أن يصنعها ما هي إلاّ أمثلة على مراكب مسخّرة للإنسان.

2. تنزيل الآية على ما يخالف المعنى:

وهو تنزيل الآية على واقع مخالف لما ذكر في الآية، ومن أمثلة ذلك قوله (1997) عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾**[غافر: 64]: "ويحتمل أنّ المعنى جعل الأرض ذات قَرَارٍ؛ أي: قَرَارٍ لكم؛ أي: جعلها مُسْتَقَرًّا لكم .. أي: خلقها على كيفيّة تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسةً غير سائلة، ولو شاء لجعلَ سطح الأرضِ سَيَّالًا كَالزِّئْبَقِ، أو كالعجل فلا يزال الإنسان سَائِخًا فيها يطفو تارة ويسيخ أخرى فلا يكاد يبقى على تلك الحالة، وذلك كوسط سبخة (التاكمرت) المسمّاة: (شَطَّ الْجَرِيدِ) الْفَاصِلَ بَين (نفطة) و (نفزاوة) من الجنوب التّونسيّ؛ فإنّ فيها مسافاتٍ إذا مشت فيها القوافل ساخَت في الأرض فلا يُعثر عليها، ولذلك لا تسير فيها القوافل إلا بِهُدَاةٍ عارفين بمسالكِ السّير في علامات مَنْصُوبَةٍ."(ج24، ص190)

فابن عاشور نزّل الآية على معنًى مخالفٍ لها في الواقع؛ فقد فسّرَ القرارَ بضدّه عندما أعطى مثالًا للأرض التي لا تصلح للقرار لأنّها سائخة؛ فلا يستقرّ عليها سائر، وقرّبه لذهن السّامع بإعطاء مثال مخالفٍ للقرار بما هو موجود في الواقع التّونسيّ، وهو شطّ الجريد الذي يبتلع القوافل لأنّه ليس بقرار.

ولا بدَّ من الإشارةِ هنا إلى إمكانية اجتماع أنواعٍ عدّةٍ للتّنزيل في الآية الواحدة، ومن ذلك قول ابن عاشور (1997) عند تفسيره لقوله تعالى:**﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [المائدة: 33] : "وقد كانت نزلت بتونس قضيّة لصّ اسمه (ونّاس) أخافَ أهلَ تونس بحيله في السّرقة، وكان يحمل السّلاح فحُكم عليه بحكم المحارب في مدّة الأمير محمد الصّادق باي (ت 1882م) وقُتل شنقًا بباب سويقة."(ج6، ص182) وفي هذا المثال تنزيلٌ صريح على الواقع، وقد جاء بمعنى مطابقٍ لما جاء في الآية الكريمة.

المبحث الثّاني: تنزيل الآيات على الواقع من الناحية الاجتماعية

المطلب الأول: الحالة الاجتماعيّة زمن ابن عاشور

كانت الأمّة الإسلاميّة قد تخلّفت عن مركز القيادة ودبَّ الضّعف والوهن في جسدها؛ فانقسمت دويلاتٍ متنازعةً، وازدادت انقسامًا قرنًا بعد قرن، وتسلّطت عليها قوى الاحتلال لاستغلال خيراتِها، فساءت أحوالها، ودبّ الضّعف والوهن بالعلاقات الاجتماعيّة التي كانت تربط أفرادها، والمواطن أصبح ضعيف الشّخصيّة نتيجةَ توالي الاستبداد فعطّلَ الخوفُ والإرهابُ ذكاءه، وفَقَدَ روحَ المبادرة، وأُبعد عمدًا عن المشاركة في الشّؤون السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وتفشّى الجهل والمرض والفقر، وابتعد الفرد . بسبب انشغاله بلقمة العيش عن فهم الدّين، وأمسى فهم المسلم للإسلام منحرفًا عن روح الإسلام الخالص، وانتشرت الأوهام والخرافات، ولم تكن البلاد التّونسيّة بمنأىً عمّا يجري في العالم الإسلاميّ يومئذٍ بل كانت صنوَ أخواتِها من الأقطار الإسلاميّة التي تشابهت في أوضاعها السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. (الغالي، 1996، ص17)

وقد "كان عصر ابن عاشور –رحمه الله– عصر اضطراباتٍ وفتن؛ فالبلاد التّونسيّة كانت تعاني من وطأةِ الدّيون الخارجيّة وكان العبثُ والفسادُ والارتشاءُ قد عمّ وأثقل كاهل التّونسيّين بالضّرائب، وضعف نفوذ الخلافة العثمانيّة التي انحلّت إلى دويلاتٍ هزيلةٍ لا همَّ لحاكمها إلا الإسرافُ والتّبذيرُ والجريُ وراءَ المكاسبِ الرّخيصة، وكثُرَتِ الفتن، وعمَّ الاضطرابُ الاجتماعيّ، واختلّ الأمن، فنشط قطّاع الطّرق، وكثُر النّهبُ والإغارةُ، وتنازعَ الأمراءُ على السّلطة، وصارَ اسمُ الحاكم مرادفًا للنّهب والسّرقة والارتشاء والظّلم والأنانيّة, وتحرّكت العصبيّة القبليّة من جديد، فبدأ النّاس يتنادَون بالعروشيّة، ويقتتلون لأتفهِ الأسباب،(الغالي، 1996، ص17–18) ومن مظاهر تفشّي الجهل في المجتمع التّونسيّ انتشارُ الشّعوذةِ والسّحر والإيمان بالأولياء والطّرق الدّينيّة. (التيمومي، 2006، ص59)

وأمّا المجتمع التونسيّ في ظل الاستعمار "فقد بدَتْ أطماعُ الاستعمار في البلاد التّونسيّة ظاهرةً للعيان؛ منها التّدخلُ في الشّؤون الدّاخليّة للدّولة بدعوى حماية الرّعايا الأجانب من اليهود وغيرهم، ومنها وضعُ الميزانيّة التّونسيّة تحت الرّقابة الأجنبيّة لضمان حسن التّصرف، حتى تتمكّن الدّولة من سداد الدّيون، ورغم الدّعوات الإصلاحيّة التي تُنادي بالنّهضة في جميع شؤون الحياة إلاّ أنّ هذه الحركاتِ سرعانَ ما اصطدمت بأنواعٍ من الصّعوباتِ الخارجيّةِ والدّاخليّة، سقطت بسببها البلادُ في حالةِ الدّمار والخراب والفوضى،(الغالي، 1996، ص18) وعمليّاتِ السّلبِ وانتزاع الأراضي الزراعيّة والأوقاف العامّة والأملاك من أهلها بشتّى

الطّرق والوسائل،(ابن خوجة، 2004،ج1، ص52) وأحاطت بها عوائقُ الحربِ الأهليّة والمجاعاتِ والأوبئة،(الغالي، 1996، ص18) بسبب الفقر الشّديد، وإهمال الاحتلال الفرنسيّ الجانبَ الصّحيّ، فلم يخصَّص من الميزانيّة التّونسيّة ما يكفي للقيامِ بالشّؤون الصّحيّة ومقاومة الأمراض، فضلًا عن عدم السّماح بإقامة منشآتٍ صحيّةٍ جديدةٍ تحتاجها البلاد؛ فزاد عددُ الوَفيات نتيجةَ المجاعات والأوبئة، (تامر، 1948، ص62-63) وانتشارِ الأرزاء الاجتماعيّة؛ فقد كانت سياسةُ الحماية الفرنسيّة ترمي إلى استغلال الشّعب التّونسيّ في كلِّ المجالات وخلقِ أرزاءٍ مخيفةٍ تكون لها عونًا في طريق تحقيق هذه السّياسة، ومن هذه الأرزاء الكحول والخدمة العسكريّة،(الثعالبي، 1975، ص 153) فإدمانُ الكحول قد كان غيرَ معروفٍ تقريبًا قبل الاحتلال وقد ورد إليهم عن طريق جنود الاحتلال، فساعدت مساعدةً كبرى في تدعيمه وذلك بالقضاء على الصّحة والثّروة، وبدعوى حرّيّة التّجارة انتصبت آلاف الخمارات بالأحياء الأهليّة، حتى اقتربت من أبواب المساجد، وتهافت النّاس عليها؛ فنشأ عنها كوارث أخرى كالإباحيّة والفجور والإجرام والبؤس الاجتماعيّ الملازمة لهذا الرزء القاتل، الذي ثبت أنّه سلاح ماضٍ في التّخلّص من النّخبة التّونسيّة التي كانت موئلًا من موائل المقاومة التّونسيّة.

وأمّا الخدمة العسكريّة فقد كانت أداةً فعالةً في انحلال النّظام الاجتماعيّ وانحطاط شأن التّونسيّين بالنّسبة للعالم المتمدّن؛ "ففي صفوف الجيش يتعلّم التّونسيّ شرب الكحول وتعاطي الفاسد. كما أنّ العقليّة النّاشئة من سوء المعاملة تجعل منه شخصًا قاسيًا ومتمرّدًا على قواعد الانضباط العائليّ والاجتماعيّ، وفي كلّ سنة يمرّ (2300) شابًا من تلك المدرسة التي تُلقّن الرّذيلة والتّوحّش." (الثعالبي، 1975، ص 161)

وتزامن هذا مع ظهور حركاتٍ إصلاحيّةٍ في البلاد وحركاتٍ وطنيّة، وقد واصل الشّعب التّونسيّ كفاحه لينال الاستقلال ضدّ الاحتلال، فقد تمكّن بقيادة الحزب الدّستوريّ الجديد بزعامة بورقيبة، من تحقيق الاستقلال عام 1956م، وقد سعت الدّولة لوضع خطط تنمية شاملة من ضمنها النّاحية الصحيّة، فضلًا عن الاهتمام بالمرأة وشؤون العائلة. (حمدية، 2009، ص19)

وقد كانت المرأة التّونسيّة من الطّبقة الموسرة والمحافظة لا تخرج من بيتها إلا نادرًا، وبعد الاستقلال سُنّت قوانين للتّسوية بين المرأة والرّجل في أغلب الميادين، وتمّ إصدار قانونٍ منعَ التعدّد بدعوى حفظ أواصر العائلة من التفكّك. (التيمومي، 2006، ص 46-47)

وبالرّغم من بداية السّريان السّريع للحداثة في جسم المجتمع التّونسيّ، فإنّ المعوّقات الأخلاقيّة والاجتماعيّة بقيت قويّة نسبيًّا رغم التّصدّع الذي أصابها، مثل النّظام القبيليّ، والتّعصّب لأبناء العمّ، والأخذ بالثّأر، والنّظرة الدّونيّة للمرأة، والتّعلّق بالأولياء، والشّعوذة. (ابن عاشور، 1997، ج1، ص87)

المطلب الثّاني: نماذج من تنزيل الآيات على الواقع من النّاحية الاجتماعيّة.

يُعدّ ابن عاشور من أبرز المصلحين الاجتماعيّين في تونس،(الغالي، 1996، ص155) فهو يرى أنّ الإصلاح الاجتماعيّ هو الغرض الأكبر للقرآن وهو إصلاح الأمّة بأسرها؛ لأنّه جاء لإصلاح الكفّار وهدايتهم إلى الإيمان، وترك الضّلالة، وهداية المؤمنين وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طرق الفلاح وتزكية نفوسهم، فكانت آيات القرآن مستقلاً بعضها عن بعض، لأنّ كلّ آية منه ترجع إلى غرض الإصلاح والاستدلال عليه،(ابن عاشور، 1997، ج1، ص87) ولذلك قام بتنزيل الآيات على الواقع الاجتماعي في زمانه، وقد ظهر ذلك في عدة مواضع من تفسيره (1997)، منها على سبيل المثال ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾** [آل عمران: 187]، إذْ يقول في تفسيره للآية محذّرًا من الرّشوة التي كانت منتشرة في المجتمع: "والاشتراء هنا مجاز في المبادلة والثّمن القليل، وهو ما يأخذونه من الرُّشى والجوائز من أهل الأهواء والظُّلم من الرُّؤساء والعامّة على تأييد المظالم والمفاسد بالتّأويلات الباطلة، وتأويل كلّ حكم فيه ضَرْب على أيدي الجبابرة والظلّمة بما يطلق أيديهم في ظلم الرَّعيَّة من ضروب التّأويلات الباطلة، وتحذيرات الذين يصدعون بتغيير المنكر، وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب إلا أنّ حكمها يشمل من يرتكب مثل صنيعهم من المسلمين لاتّحاد جنس الحكم والعلّة فيه."(ج4، ص192- ص193)

فقد نبّه إلى أنّ من يساند أهل الظّلم مقابل المطامع الدّنيويّة من رشوة ومركز يندرج تحت حكم الآية، وأنّها غير مقصورة على أهل الكتاب، وفيها تعريض لكلّ من يفعل ذلك لخدمة مصالحه على حساب المصلحة العامّة، ويفتي بما لا يوافق الشّريعة ويكتم ما يجب عليه بيانه من الحقّ، وهذا يمثّل شريحة في زمانه ممّن كان يقبل الرّشى من أجل مركز مرموق أو مكانة، وفي هذا تنزيل ضمنيّ يظهرُ من قوله: "ويشمل حكمها كلّ من يرتكب صنيعهم من المسلمين".

ومنها ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: 25]، إذْ حضّ على الإصلاح، في الأفراد والمجتمع، وحثّ المصلحين على القيام بدورهم، وعدم التّخلّف عنه، وحذرهم من التواني عنه فقال: "فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأَوْا دبيبَ الفسادِ في عامَّتهم أن يبادروا للسَّعي إلى بيان ما حلَّ بالنّاس من الضّلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل، لأن أضرار حلولها تصيب جميعهم. (ج9، ص317) فهو يشير إلى وجوب القضاء على أيّ مظهر من مظاهر الفساد بمجرّد رؤية بوادره، ويحذّر من عواقبه الوخيمة التي تعم جميع أفراد المجتمع.

ومنها ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ [البقرة: 102]، حيث يقول محذرًا من تعاطي السِّحر: "ومن هذا النّوع ضروب هي في الأصل تجاربُ لمقدار طاعة المتعلّم لمعلّمه، بقيت مُتَلَقَّاةً عندهم عن غير بصيرة مثل ارتكاب الخبائث، وإهانة الصالحات والأمور المقدّسة، إيهامًا بأنّها تبلّغ إلى مرضاة الشّياطين وتسخيرها، وذلك في الواقع اختبار لمقدار خضوع المتعلّم، لأنّ أكبر شيء على النّفس نبذ أعزّ الأشياء وهو الدّين، ولأنّ السّحرة ليسوا من الملّيّين فهم يبلغون بِمُرِيدِيهِمْ إِلَى مَبَالِغِهِمُ السّافلة، وقد سمعنا أنّ كثيرًا ممّن يتعاطَون السّحر في المسلمين يزعمون أنّهم لا يتأتّى لهم نجاحٌ إلا بعد أن يلطّخوا أيديَهم بالنّجاساتِ أو نحوٍ من هذا الضّلال." (ج1، ص635)

فهو يصرّح بأنّ ما يفعلُه متعاطي السّحر من أعمال تعدُّ من الضّلال، وينبّه على أنّ فعلهم هذا يخرجهم عن الملّة، وحذّر من اتّباع نهجِهم أو اللّجوءِ إليهم، وبيّن أفعالَهم وتأثيرَهم البالغ فيمن يتّصف بجهالة العقل وضعف العزيمةِ والبنية.

وقد ميّز في موضع آخر بين السّحر والشّعوذة، فقال: "وقد يطلق اسم السّاحر اليوم على اللاّعب بالشّعوذة في الأسمار وذلك من أصناف اللّهو فلا ينبغي عدّ ذلك جناية." (ج1، ص 639)

ومن تنزيل الآيات على الواقع الاجتماعي تحذيره من الخمر والمخدّرات حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى:﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ [التين: 5]: "وممَّا يدخله على نفسه من مساوئ العادات كشرب المسكرات وتناول المخدَّرات ممَّا يورثه على طول انثلام تعقُّله أو خَور عزيمته."(ج30، ص425)

وهذا جانب إصلاحي اجتماعي آخر، فهو يحذر من ارتكاب مثل هذه المحرّمات ويستنبط مدى الانحدار والتّسفّل عند ارتكابها؛ لما لها من آثارٍ لا تتوقّف عند الفرد نفسه بل هي مهلكة للمجتمع أيضًا.

وفيما يخصّ المرأة وحقوقها فقد صرّح ابن عاشور(1997) بجواز مباشرة المرأة عملَها بنفسها بشرط التزام السّتر، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾ [القصص: 23]: "وفي إذنه لابنتيه بالسَّقي دليل على جواز معالجةِ المرأةِ أمورَ مالها وظهورها في مجامعِ النّاس إذا كانت تستر ما يجب سَتره، فإنَّ شرع من قبلَنا شرعٌ لنا إذا حكاه شرعُنا ولم يأت من شرعِنا ما ينسخه، وأمَّا تحاشي النّاس من نحو ذلك فهو من المروءة والنّاس مختلفون فيما تقتضيه المروءة، والعادات متباينة فيه، وأحوال الأمم فيه مختلفة، وخاصَّة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف."(ج20، ص101) فقد نبّه إلى أنّ عدم خروج المرأة للعمل قد يرجع إلى اختلاف العادات والأعراف، كما أنه عرض لموضوع المرأة في كتابه (أصول النظام الاجتماعي، 1985).

وفيما يتعلّق بالمساواة بين الرّجل والمرأة يقول ابن عاشور (1997) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾ [النساء: 32]: "وقد أصبح هذا التَّمنِّي في زماننا هذا فتنةً لطوائفَ من المسلمين، سرت لهم من أخلاق الغلاة في طلب المساواة، ممَّا جرَّ أممًا كثيرة إلى نِحلة الشِّيوعيَّة؛ فصاروا يتخبّطون لطلب التَّساوي في كلّ شيءٍ، ويعانون إرهاقًا لم يحصلوا منه على طائل." (ج5، ص28) فهو يحذّر من الانجرار وراء دعوى المساواة التي دخلت متأخّرة للبلاد العربيّة ولم تجنِ في كثير من الأحيان إلا الويلاتِ بعدما فشلت في منشئها.

ومن تنزيله الآيات على الواقع الاجتماعي قوله عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**﴾ [التكوير: 28] آ: "وفي هذه الآية إشارة بيّنة إلى أنّه من الخطأ أن يوزن حال الدّين الإسلاميّ بميزان أحوال بعض المسلمين أو معظمهم، كما يفعل بعض أهل الأنظار القاصرة من الغربيّين وغيرهم؛ إذ يجعلون وجهة نظرهم التّأمّل في حالة الأمم الإسلاميّة، ويستخلصون من استقرائها

أحكامًا كلّيّة يجعلونها قضايا لفلسفتهم في كنه الدِّيانة الإسلاميّة." (ج30، ص167)

فهو يردّ على الذين يَزِنون الإسلام بممارسات النّاس وعاداتهم وتقاليدهم، فجلّ الانتقادات التي وُجّهت للمسلمين بسبب أفعالهم التي لا تمثّل الدّين بل ورثوها أو فرضتها عليهم مجتمعاتهم، وقد قدّمت عند استعراض الحياة الاجتماعيّة بعض الممارسات الخاطئة، كالتّقرب للأولياء والشّعوذة والنّظرة الدّونيّة للمرأة، والتي كانت مدخلًا للطّعن في الدّين.

ويظهر من كل ما سبق أن ابن عاشور لم يكن متجاهلاً للأحداث الاجتماعية التي حصلت في زمانه، وإنما كان يربط بين معاني الآيات وبين الأحداث المعاصرة له داعيًا إلى الإصلاح، ومحذّرًا من عواقب المفاسد الاجتماعية المنتشرة في بلاده سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة.

المبحث الثّالث: تنزيل الآيات على الواقع من النّاحية الاقتصاديّة.

المطلب الأول: الحالة الاقتصاديّة في زمن ابن عاشور.

اختلّت ميزانيّة الدّولة العثمانيّة في آواخر عهدها، وذلك بسبب القروض من الدّول الأوروبيّة، ولذلك فُرِضت على الشّعب الجبايات، وأنواع من الأداءات المجحفة؛ فظهرت الفتن والثّورات في أطراف تونس، وصحب هذا الوضع ازديادُ الغزو التّجاريّ الأوربيّ في مختلف الجهات، وعمّت الفوضى، واكتنفتِ النّاسَ الحيرةُ والمخاوفُ حتى انتهى الأمر بفرض الحماية الفرنسيّة التي استمرت من عام (1881م) حتى عام (1956م)، وأدّت إلى استلاب السّيادة القوميّة، (ابن خوجة، 2004، ج1, ص51) وضْعِ الميزانيّة التّونسيّة تحت الرّقابة الأجنبيّة،"(الغالي، 1996، ص18) وقد نتج عن ذلك إلى انتشار البطالة المفرطة، وحِرمان التّونسيّ من أسباب رزقه، وإقصاء الكفاءات الوطنيّة، وحرمانها من الوظائف العليا، وفشو الرّبا الذي اضطر إليه النّاس في كلّ طبقات المجتمع ليحسّنوا إيرادهم؛ فكان سببًا في الضّنك والشّقاء الذي قضى على أرزاقهم،(الثعالبي، 1975، ص44-53) وزاد من هذا الوضع عمليّات السّلب وانتزاع الأراضي الزّراعيّة والأوقاف العامّة والأملاك من أهلها بشتّى الطّرق، (ابن خوجة، 2004، ج1, ص52) وقد سلكت الحكومة الفرنسية في ذلك مسلكين:

الأول: منحِ الفلاّحين الفرنسيّين . لا سيّما أفراد الأُسر الكبيرة . أراضيَ زراعيّةً أطلقت عليها اسم أراضي الاستعمار، واشترطت إقامة الفلاّح عليها، وقد مُنحوا أخصب الأراضي الزّراعيّة بينما تُرك للتّونسيّين ما لا خير فيه.

والثاني: مصادرةِ الأراضي بالقوّة من التّونسيّ إذا جاءته سنوات جدب وجفاف، فيضطر للدّينِ الرّبويّ ثمّ الرّهنِ، فسلفٍ على الحصاد المقبل، فمزادٍ علنيّ، أو يضطرّ إلى بيعِ أرضه لجاره الفرنسيّ الذي يستطيع أن يسخّر ماله وعلمه في استثمارها ويعمل عنده خادمًا، ويجد المساعدات الماديّة والمعنويّة بينما يُحرم منها التّونسيّ.(حقي، د. ت، ص155)

وأمّا بالنّسبة للصّناعات فقد وقف الفرنسيّون سدًّا منيعًا أمام أيّ صناعة جديدة بحجّة عدم وجود الطّاقة الكهربائيّة، على الرّغم من أنّ إيجادها كان ميسورًا، ولمّا كان قيام الصّناعة سيؤثّر سلبًا على الصّناعة الفرنسيّة فقد حالوا دونه.(حقي، د. ت، ص228)

وأما شبكة المواصلات فكانت في تطوّر، ويرجع الفضل في ذلك للدولة العثمانية التي كانت قد أنشأت وسائل مواصلات تربط مدن التّونسيّة ببعض، مثل سكّة الحديد، وكان لذلك فضل في الحركة الاقتصاديّة، حتى قلّت العناية به نتيجة وجود السّيارات والطّائرات، والسّفن التّجاريّة الكبيرة التي كانت ترسو بالموانئ التّونسيّة(حقي، د. ت، ص239-244).

وبعد الاستقلال سعت الدّولة جاهدةً إلى تحسين بعض الأمور، منها: الاستقلال النّقديّ والحدّ من التّبعيّة، ومحاولة فرض السّيطرة المطلقة على كافّة القطاعات الأساسيّة كالكهرباء والغاز والماء التي كانت تحت رزء الاحتلال وذلك بتأميمها، أو بشراء الأسهم فيما تمتلكه من بعض القطاعات. (التيمومي، 2006، ص31)

وتحوّل النّظام الرّأسماليّ الذي خلّفته سياسة الاحتلال إلى النّظام الاشتراكيّ الذي سارت به الدّولة للخروج من الأزمة الاقتصاديّة، وأطلق على هذه السّياسة الاقتصاديّة الجديدة تسميات عدّة مثل التّعاضد، أو الاشتراكيّة الدّستوريّة أو التّصميم، ومع كل ذلك بقيت الدّولة ترزح تحت وطأة القروض الخارجيّة المحوّلة من الدول الأوروبيّة إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة والبنك الدّوليّ للإنشاء والتّعمير، لتقوم بمشاريع صناعيّة كبرى في مختلف أنحاء البلاد. (التيمومي، 2006، ص95)

المطلب الثّاني: نماذج من تنزيل ابن عاشور على الواقع من النّاحية الاقتصاديّة.

لقد ظهر من خلال استقراء تفسير التحرير والتنوير اهتمام ابن عاشور بالواقع الاقتصادي في عصره، وتنزيله للآيات على هذا الواقع، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال، ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ**

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: 85]، إذ يقول: "وما جاء في هذا التّشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمّة؛ لأنّ المعاملات تعتمد الثّقة المتبادلة بين الأمّة، وإنّما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط النّاس للتّعامل؛ فالمنتَج يزداد إنتاجًا وعرضًا في الأسواق، والطّالب من تاجر أو مستهلك يُقبل على الأسواق آمنًا لا يخشى غبنًا ولا خديعةً ولا خلابة، فتتوفّر السّلع في الأمّة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجيّاتها وتحسيناتها، فيقوم نماء المدينة والحضارة على أساس متين، ويعيش النّاس في رخاء وتحابب وتآخٍ، وبضدّ ذلك يختلّ حال الأمّة بمقدار تفشّي ضدّ ذلك." (ج8، ص 244)

فهو يبيّن من جانب أنّ الأمانةَ أصلٌ من أصول رواج المعاملة، وسببٌ في نشاط الاقتصاد، ومن جانبٍ آخرَ يشير إلى ما يثبّت أركان العزّة والعلوّ، وذلك بإيجاد ما يُستغنى به عن الاستيراد من الدّول الأجنبيّة الذي يشكل عبئًا على الأمّة، وأنّ الاستغناء عن ذلك يخلّصها من التّبعيّة للدّول الخارجيّة التي أنهكت البلاد الإسلاميّة والتّونسيّة، فكانت حجّة للتمكّن منها بفرض الحماية ومن ثَمَّ الاحتلال.

وعند تفسيره لقوله تعالى:**﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾** [البقرة: 283] يقول: "الرّهن عقد يثبت بالصّيغة كالبيع، والقبض من لوازمه، فلذلك يجبر الرّاهن على تحويز المرتهن، إلّا أنّه إذا مات الرّاهن أو أفلس قبل التّحويز كان المرتهن أسوةَ الغرماء؛ إذ ليس له ما يؤثره على بقية الغرماء، والآية تشهد لهذا؛ لأنّ الله جعل القبض وصفًا للرّهن، فعلم أنّ ماهية الرّهن قد تحقّقت دون القبض. وأهل تونس يكتفون في رهن الرِّباع والعقار برهن رسوم التَّملُّك، ويعُدُّون ذلك في رهن الدَّين حوزًا. وفي الآية دليل واضح على بطلان الانتفاع لأنَّ الله تعالى جعل الرَّهن عوضًا عن الشّهادة في التّوثُّق فلا وجه للانتفاع، واشتراط الانتفاع بالرّهن يخرجه عن كونه توثُّقًا إلى ماهيّة البيع." (ج3، ص122)

فهو يتعرّض هنا للرّهن الذي أثقل كاهل التّونسيّ بكافّة القطاعات، والذي كان دارجًا في عصره، مبيّنًا ماهيّته ويربطه بتعامل أهل تونس.

وعند تفسيره لقول تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [آل عمران: 130] آ يقول: "ولقد قضى المسلمون قرونًا طويلةً لم يرَوا أنفسَهم فيها محتاجين إلى التّعامل بالرّبا، ولم تكن ثروتهم أيّامئذٍ قاصرةً عن ثروة بقيّة الأمم في العالم، أزمان كانت سيادة العالم بيدهم، أو أزمان كانوا مستقلّين بإدارة شؤونهم، فلمّا صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلاميّة، وارتبط المسلمون بغيرهم في التّجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثّروة العالميّة على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراباة في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين، دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون، وتحريم الرّبا في الآية صريح، وليس لما حرّمه الله مبيح، ولا مخلّص من هذا المضيق إلا أن تجعل الدّول الإسلاميّة قوانين ماليّة تُبنى على أصول الشّريعة في المصارف، والبيوع، وعقود المعاملات المركّبة من رؤوس الأموال وعمل العمال، وحوالات الدّيون ومقاصتها وبيعها، وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشّريعة والتّدارس بينهم في مجتمع يحوي طائفةً من كلّ فرقة كما أمر الله تعالى." (ج4، ص87)

لقد التفت إلى فشو الربا في زمانه، وانزل معنى الآية على ذلك الواقع المرير، فذكر تحريم التعامل الربوي، وبيّن أن المخرج من ذلك يكون بإيجاد قوانين للتعاملات المالية مبنية على أصول شرعية، مُشيرًا إلى ضرورة تأسيس مجمع فقهيّ يضمّ كافّة المذاهب ليجدوا حلولًا يقبلها الشّرع فتكون بديلًا عن التّعامل الرّبويّ الذي تفشّى في الأرجاء.

وعند تفسيره لقوله تعالى: **﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [النحل: 8] يقول: " فالذي يظهر لي أنّ هذه الآية من معجزات القرآن الغيبيّة العلميّة، وأنّها إيماء إلى أنّ الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحرّكها برجليه وتسمى (بسكلات)، وأرتال السّكك الحديديّة، والسّيارات المسيّرة بمصفّى النّفط وتسمّى (أطوموبيل)، ثمّ الطّائرات التي تسير بالنّفط المصفّى في الهواء. فكلّ هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كلّ منها، وإلهام الله النّاس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذّكاء والعلم وبما تدرّجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأنّ الكلّ من نعمته."(ج14، ص111)

فقد التفت إلى معنى الآية الكريمة ثم ربط بينها وبين الواقع في زمانه، فاستعرض بعض ما توصّل له العلم الحديث من اختراعات في جانب المواصلات التي لها أثر مباشر على الاقتصاد، وهذا تنزيل صريح وجزئيّ، حيث استغل المقطع الأخير بما يطابق معنى الآية الكريمة.

ومن تنزيله الآيات على الواقع من الناحية الاقتصادية ما جاء تفسيره لقوله تعالى: **﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ**

يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج: 37] حيث يقول: "وقد عَرَضَ غير مرّة سؤال عمّا إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم قطعًا أو ظنًّا قريبًا من القطع كما شوهد ذلك في مواسم الحجّ، فما يبقى منها حيًّا يباع وينفق ثمنه في سدّ خلّة المحاويج أجدى من نحره أو ذبحه حين لا يرغب فيه أحد، ولو كانت اللّحوم التي فات أن قطعت وكانت فاضلة عن حاجة المحاويج يعمل تصبيرها بما يمنع عنها التّعفّن فينتفع بها في خلال العام أجدى للمحاويج. وقد تردّدت في الجواب عن ذلك أنظار المتصدّين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتّفق كلمات من صدرت منهم فتاوى على أنّ تصبيرها منافٍ للتّعبّد بهديها. أمّا أنا فالذي أراه أنّ المصير إلى كلا الحالين من البيع والتّصبير لما فَضَلَ عن حاجة النّاس في أيّام الحجّ، لينتفع بها المحتاجون في عامهم، أوفق بمقصد الشّارع تجنّبًا لإضاعة ما فضُل منها رعيًا لمقصد الشّريعة من نفع المحتاج، وحفظ الأموال، مع عدم تعطيل النّحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها، وهو المشار إليه بقوله تعالى: **﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾** [الحج: 36]، وقوله تعالى: **﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾** [الحج: 37] جمعًا بين المقاصد الشّرعيّة. "(ج17، ص268)

فهو يُشير إلى ضرورة حفظ الأموال التي هي عصب الاقتصاد، ويضع المقاصد الشرعية نصب عينيه عند التّصدّي للإفتاء وينتقد الكثير من فقهاء عصره في عدم النّظر إلى مآل الحال عند النّحر، وقد بنى فتواه على الرّبط بالواقع المشاهَد، وهو أنّ البيع والتّصبير لا ينافيان التعبّد بهديها، لما في ذلك من مراعاة لمقاصد الشّريعة وتجنّبًا لإضاعة المال.

فقد بان من كل ما سبق أن ابن عاشور كان مهتمًا بالربط بين معاني الآيات القرآنية وبين الأحداث الحاصلة في عصره والمتصلة بالجانب الاقتصادي الذي يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالتعمير والبناء، والترقي بمستويات المعيشة في الحياة، إضافة إلى أمن المجتمع، واستقرار الدولة وحفظ كيانها.

الخاتمة

الحمد لله الذي فضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وخير المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، فبعد أن أكرمنا الله بإتمام هذه الدراسة نلخص النتائج التي تم الوصل إليها بالنقاط الموجزة الآتية:

1. إن المراد بتنزيل الآيات على الواقع هو إحلال المفسِّر معاني الآيات القرآنيّة والربط بينها وبين الأحداث المكوِّنة لحياة النّاس التي حصلت في زمانه.

2. لتنزيل الآيات على الواقع عدة فوائد، منها: توثيق أبرز الأحداث التاريخية في عصر المفسر ومعرفة مدى تفاعله مع الأحداث الواقعة في عصره، وإبراز آراء المفسِّر الفقهية، واستنباطاته للأحكام الشرعية.

3. من أنواع تنزيل الآيات على الواقع: الصريح والضمني، والكلي والجزئي، والمطابق أو المخالف للمعنى المراد.

4. تعرض ابن عاشور لإنزال الآيات على الحياة الاجتماعية في أمور منها: ضرورة الإصلاح، وبيان دور المصلحين في النهوض بالأمة، والقضاء على الفتن، والتحذير من الرشوة، والتعامل بالسحر، والخمر والمخدرات، وحق المرأة في مباشرتها العمل مع مراعاة الضوابط الشرعية، والتحذير من عواقب الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة.

5. كان للأحوال الاقتصادية في زمان ابن عاشور نصيب من تنزيل الآيات عليها، إذْ نبّه إلى ضرورة إيجاد ما يستغنى به عن الاستيراد، وأنه سبب النماء الاقتصادي وأساسه، وحذر من عاقبة فشو الربا وانتشاره، داعيًا إلى تأسيس مجمع فقهي يتولى البحث عن بدائل التعامل بالربا.

6. لم يكن ابن عاشور غائبًا عن الأحداث الحاصلة في زمانه، بل ربط بين معاني آيات القرآن الكريم، وبين الأحداث الواقع في عصره في جوانب الحياة المختلفة، الدينية، والسياسية، والاقتصادية، ولاجتماعية، وغيرها.

المصادر والمراجع

ابن خوجة، م. (2004م) شيخ الإسلام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، (ط1)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية.
ابن عاشور، محمد الطاهر، (1985م) أصول النظام الاجتماعي، (ط2)، تونس، الشركة التونسية للتوزيع.
ابن عاشور، محمد الطاهر، (1997م) التّحرير والتّنوير، (ط1)، تونس، دار سحنون.
ابن عاشور، محمد الطاهر، (2011م)، مقاصد الشريعة الإسلاميّة، القاهرة: دار الكتاب المصريّ، ولبنان: دار الكتاب اللبنانيّ.

ابن فارس، أحمد بن زكريا، (1979م) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر.
ابن قيم الجوزية، محمد ابن أبي بكر، (1991م)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة.
ابن قيم الجوزية، محمد ابن أبي بكر، (1996م)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ط3، بيروت، دار الكتاب العربي، (1996م).
ابن منظور، محمد بن مكرم، (1994م) لسان العرب، (ط3)، بيروت، دار صادر.
أبو حسان، جمال، (1991م)، تفسير ابن عاشور التّحرير والتّنوير دراسة منهجية ونقدية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأُردنيّة، عمّان، الأردن
آدمز، سايمون، (2008م)، الحرب العالميّة الثانيّة–مشاهدات علميّة، (ط1)، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
بوعود، أحمد (2000م)، فقه الواقع أصول وضوابط، (ط1)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة.
تامر، الحبيب، (1948م)، هذه تونس، القاهرة: مكتبة المغرب العربي، مطبعة الرسالة.
التيمومي، الهادي، (2006م) تونس 1956م–1987 م، (ط1)، تونس، دار محمد علي للنشر.
الثعالبي، عبد العزيز،(1975م)، تونس الشهيدة، (ط1)، بيروت، دار القدس.
الجرجاني، علي بن محمد (1983م) كتاب التعريفات، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة.
حقي، إحسان. (د. ت) تونس العربيّة، (ط1)، بيروت، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.
حمدية، هالة فائق، (2009م)، الإصلاح الاجتماعي في تفسير التحرير والتنوير، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن.
الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، (1992م) المفردات في غريب القرآن، (ط1)، دمشق، بيروت، دار القلم، الدار الشامية.
الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، (د. ت)، تاج العروس من جواهر القاموس، (ط)2، الكويت، مطبعة الكويت.
الزرقاني، محمد عبد العظيم. (د. ت) مناهل العرفان في علوم القرآن، (ط3)، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
الزركلي، خير الدين. (2002م) الأعلام، (ط15)، بيروت، دار العلم للملايين.
زمزمي، يحيى بن محمد، (2009م) تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الرابع.
السمين الحلبي، شهاب الدين، أحمد بن يوسف، (1996م) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، (ط1)، بيروت، دار الكتب العلميّة.
الضامر، ع. (2007م)، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، (ط1)، الإمارات: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
الضمور، أديب فايز، (2011م)، فقه الإصلاح والتغيير السياسي، (ط1)، عمّان: دار المأمون للنشر والتوزيع.
عباس، فضل حسن، (2010م)، إتقان البرهان في علوم القرآن، (ط2)، عمان: دار النفائس.
الغالي، بلقاسم، (1996م) شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، (ط1)، بيروت، دار ابن حزم.

References

Abn khwjt, m. (2004m) shaykh al'islam al'akbar muhamad alttahir abn eashwr, (t1), qatara, wizarat al'awqaf walshuwuwn walmuqadasat al'iislamia

Abn eashwr, m. (1985m) 'asul alnizam alaijtimaeii, (t2), tunis, alsharikat altuwnisiat liltawzie

Abn eashwr, m. (1997m) altthryr walttnwyr, (t1), twns, dar shnun

Abn eashwr, m. (2011m), muqasid alshryet al'islamyt, alqahrt: dar alkitab almsry, walubnan: dar alkitab allbnany

Abn fars, 'a. (1979m) mejam maqayis allaghat, thqiq: eabd alsalam harun, bayruta, dar alfikr

Abn qiam aljawziat, m. (1991m), 'iielam almuaqiein ean rabi alealamini, t1, bayrut, dar alkutub alelmy

Abn qiam aljawziat, m. (1996m), madarij alsalikin bayn manazil 'iiaak naebud wa'iiaak nastaeina, t3, bayrut, dar alkitab alearabia

Abn manzur, ma, (1994m) lisan alearab, (t3), bayrut, dar sadir

'Abu hasan, j. (1991m), tafsir abn eashur altthryr walttnwyr dirasatan manhajiatan wanaqdiata, risalatan majstyr ghyr manshurat, aljamieat al'urdnyt, emman

Admz, s. (2008m), alharb alealmyt althanyt-mshahdat elmyt, (t1), alqahirati, nahdatan misr liltabaeat walnashr waltawzie

Bueud, 'ahmad (2000m), faqh alwaqie 'asul wadawabit, (t1), aldawhat: wizarat al'awqaf walshuwuwn al'islamy

Tamir, ha. (1948m), hadhih twns, alqahrt: maktabat almaghrib alearabii, mutbaeat alrisala

Altiymumi, h. (2006m) tunis 1956m-1987 m, (t1), tuns, dar muhamad eali lilnashr

Althaealibi, ea. (1975m), tunis alshahidat, (t1), bayrut, dar alquds

Aljurjani, j. (1983m) kitab altaerifat, t1, bayrut, dar alkutub alelmy

Haqi, 'i. (d. T) tunis alerbyt, (t1), bayrut, dar althaqafat liltabaeat walnashr waltawzie

Hmdyt, h. (2009m), al'iislah alaijtimaeiu fi tafsir altahrir waltanwiri, risalat majstyr ghyr manshuratin, jamieatan al albayt, almufriq, al'urduni

Alrraghib al'asfihaniu, ha. (1992m) almufradat fi ghurayb alqurani, (t1), dimashqa, bayrut, dar alqlm, aldaar alshshamia

Alzubidiu, m. (d. T), taj aleurus min jawahir alqamws, (t)2, alkuayta, mutbaeat alkuayt

Alzurqani, ma. (d. T) manahil alearafan fi eulum alqurani, (t3), alqahirat: mutbaeat eisaa albabi alhalabii washurakah

Alzarakali, kha. (2002m) al'aelamu, (t15), bayrut, dar aleilm lilmalayin

Zamzmi, y. (2009m) tanzil alayat ela alwaqie eind abn alqym, majalat albihawth waldirasat alquraniatu, aleadad alraabie

Alsamin alhalbiu, sh. (1996m) eumdat alhifaz fi tafsir 'ashraf al'alfazi, (t1), bayrut, dar alkutub alelmy

Alddamir, ea. (2007m), tanzil alayat ela alwaqie eind almufasirina, (t1), al'imarat: jayizat dubay alduwaliat lilquran alkarim

Aldumur, 'a. (2011m), faqih al'iislah waltaghyir alsiyasiu, (t1), emman: dar almamun lilnashr waltawzie

Eabbas, fa. (2010m), 'iitqan alburhan fi eulum alqurani, (t2), eaman: dar alnafayis

Alghali, b. (1996m) shaykh aljamie al'aezam muhamad alttahir abn eashur hayatah watharihi, (t1), bayrut, dar abn hizm

Connecting the Qur'anic verses with reality in Ibn Ashour 's Tafsir The Concept of the (Sociality and Economy as a Model)

Kholoud Al-Kilani[1], Abdallah Alzyout[2]

ABSTRACT

The current study deals with the revelation of Qur'anic verses on the reality according to the concept of the sociality and economy according to Ibn Ashour through the interpretation of verification (Tafsir al-Tahrir wa'l Tanwir). The study aims to show the concept of the revelation of Qur'anic verses on the reality as well as its benefits and types. It also aims to highlight Ibn Ashour's revelation of Qur'anic verses on the reality in both ways sociality and economy. I had accomplished to several results, the most prominent care Ibn Ashour in the modern reality and his care of the social and economic situation that he has experienced.

Keywords: Ibn Ashour, altahrir waltanwir; the revelation; Qur'anic; verses on the reality; sociality; economy.

1.Researcher in Sharia, 2.The University of Jordan

Received on 15/9/2019 and Accepted for Publication on 26/2/2020.